مجلة جامعة الملك سعود، م١٦، الآداب(٢) ، ص ص ٠-٠٠ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)

التحولات السياسية والاجتماعية في الدرعيـة (٨٥٠- ١١٥٧هـ/١٤٤٦م - ١٧٤٤م)

عبدالله بن محمد المطوع
أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود
الرياض، المملكة العربية السعودية
(قدم للنشر بتاريخ ٥/١ / ١٤٢٣هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ٢٨/ ٨/ ١٤٢٣هـ)

ملخص البحث. يهدف هذا البحث إلى دراسة التحولات السياسية والاجتماعية التي مرت بمجتمع الدرعية منذ بداياته المبكرة عندما كان مركزاً في الموضعين الشهيرين: المليبيد وغصيبة حتى أصبحت عاصمة. وقد عني هذا البحث بمناقشة رواية تأسيس الدرعية وسكانها الأوائل والوافدين عليهم. نواجه في مثل هذا الموضوع بندرة المصادر، ومن ثم الشح الشديد في المعلومات التاريخية العامة فما بالك بتلك المتعلقة بتركيبة المجتمع وفئاته المكونة له. ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا بعض المسلمات وهو أن المردة كانوا المؤسسين وعماد المجتمع، ولذلك فلا مناص من مناقشة بعض أنشطتهم السياسية سواء ما كان منها على المستوى المحلي أم ضمن محيطهم الجغرافي. كما سنحاول في هذا البحث طرح بعض الفرضيات والتساؤلات لدراسة ذلك المجتمع وما طرأ عليه من تطورات في حييه القديمين ثم بروز حي الطريف وشيوع اسم الدرعية.

تمهيد

ينحدر وادي حنيفة من قمم مرتفعات جبل طويق شمالاً ويمتد جنوباً مع ميل نحو الشرق بمسافة تقدر بحوالي مائة وخمسين كيلاً حتى مصبه في السهباء، وقد قامت

على جنباته وروافده العديد من القرى والبلدان.[١] ويعد هذا الوادي مهداً أساسياً لحضارة وسط الجزيرة العربية منذ عصر ما قبل الإسلام حتى العصر الحديث . كان توافر الماء - العامل الأهم في الاستيطان والحضارة - قرب الوديان أو على ضفافها أمراً ملزماً عند اختيار موقع هذه البلدة أو تلك وإمكانية الانتقال إليها وتعميرها. اعتمد اقتصاد هذه البلدان بشكل أساسي على الزراعة ، وخاصةً عند بداية إنشائها ، ولهذا فليس من المستغرب أن ترى العديد من تلك البلدان تقع على أطراف الأودية الكبيرة ويصدق ذلك بشكل كبير على وادي حنيفة.

بعد عدة قرون من الجهل والفوضى والهجرات الخارجية شهد إقليم نجد في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بداية حركة توطن وكذلك إعادة استيطان لبعض بلدانه التي هجرت خلال الحقب السابقة. كان من أبرز الأمثلة على ذلك استيطان آل مدلج في التويم سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م ، وكذلك استيطانهم في حرمة سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ، وكلا البلدتين كانتا في السابق من منازل بني عايذ.[٢] استمرت حركة النمو هذه في القرن التالي وتأسست بعض البلدان الجديدة وكان من أهمها على الإطلاق بلدة العيينة التي قدر لها أن تلعب دوراً أساسياً في تاريخ نجد الحديث ، ولذا فمن الأهمية بمكان التعريف بها ؛ نظراً لمعاصرتها لنشأة الدرعية. تم تأسيس هذه البلدة عام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م وذلك عندما اشترى حسن بن طوق ، جد آل معمر ، موقع العيينة من آل يزيد الحنفيين وانتقل إليها من بلدة ملهم ،[٣] وكان حسن بن طوق قد انتقل من ثرمداء إلى ملهم قبل

(١) للمزيد من المعلومات حول وادي حنيفة وما يقع عليه من البلدان ، انظر : عبدالله بن محمد بن خميس ، *تاريخ اليمامة* ، ط١(الرياض : مطابع الفرزدق التجارية ، ١٤٠٧ هـ)، ١ : ٥٩ - ٧٠ .

(٢) إبراهيم بن صالح بن عيسى ، *تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان* (الرياض : منشورات دار اليمامة ، د. ت.)، ٢٨ - ٣١ .

(٣) محمد بن عمر الفاخري ، *تاريخ الفاخري* ، دراسة وتحقيق وتعليق عبدالله بن يوسف الشبل (الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ)، ٨١ . وذكر الشيخ حمد الجاسر أن هذه القبيلة انتقلت إلى نجد من بلاد عبيدة - قحطان . للمزيد من المعلومات انظر : حمد الجاسر ، *جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد* ، ط ١ (الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠١هـ)،٢ : ٥٣٤ - ٥٤٢ .

ذلك بحوالي نصف قرن تقريباً. أما عن أسباب هاتين الهجرتين المتتاليتين، فإن المصادر المتوافرة لدينا لا تسعفنا بذلك، ولكن يبدو أنها لا تخرج عن الأسباب التقليدية للهجرة في نجد وهي عادةً إما سياسية، أي خلافات وتنازع على الزعامة داخل الأسرة الحاكمة للبلدة، أو بينها وبين البلدان الأخرى، وإما اقتصادية،[٤] وذلك عندما يزداد الضغط على الموارد الطبيعية.

استمر نمو العيينة وبزت ما سواها من بلدان نجد وتوسعت فيما حولها من المناطق المجاورة، وخاصةً في المناطق الواقعة إلى الجنوب منها على امتداد وادي حنيفة. ومن الواضح أنها تمتعت باستقرار سياسي، ونتيجةً لذلك ازدهرت هذه البلدة كثيراً في ظل إمارة آل معمر، وخاصةً في الفترة ما بين النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. ليس أدل على ذلك من خلو كتب الحوليات من ذكر أخبار صراع على الحكم بين أفراد أسرة آل معمر، وهذا أمر يندر حدوثه في بلدان نجد التي كانت تعاني من صراع شبه دائم على الحكم. قال المؤرخ عثمان بن بشر في ترجمته لعبدالله بن محمد بن معمر الذي توفي مع كثير من أهل العيينة بسبب وباء حل بالبلدة سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م " الذي لم يذكر في زمانه ولا قبل زمنه (هكذا) في نجد في الرئاسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث."[٥] ورغم ما عانته البلدة وسكانها بسبب ذلك الوباء، إلا أنها استطاعت أن تصمد وتستمر قويةً متماسكةً سياسياً واقتصادياً، ومؤثرةً في إقليم نجد بشكل عام وفي وادي حنيفة بشكل خاص، وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين أميرها

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: عبدالمحسن بن محمد بن عبدالعزيز بن معمر، *إمارة العيينة وتاريخ آل معمر*، ط ١(القاهرة: دار الأمين، ١٤١٦هـ)، ٢٦١ - ٢٦٤.

(٥) عثمان بن عبدالله بن بشر، *عنوان المجد في تاريخ نجد*، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ط ٤ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ)، ٢ : ٣٦٧ .

عثمان بن معمر بـ " شيخ وادي حنيفة، "[٦] ومن المؤكد أن ذلك من بين الأسباب التي شجعت الشيخ محمد بن عبدالوهاب على الهجرة إليها بعد مضايقته في حريملاء.

نشأة الدرعية واستيطانها المبكر

تحتل الدرعية موقعاً متميزاً حيث تقع في منتصف وادي حنيفة شمال غرب الرياض، [٧] وتتناثر بساتينها ونخيلها على ضفتي هذا الوادي.[٨] شكل موقعها على قمة جبل طويق والجبال المحيطة بها من كل جانب دفاعات طبيعية فلا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الأودية والتي من السهل مراقبتها وحمايتها . كان تعمير الدرعية واستيطانها مزامناً لتعمير بلدة العيينة عام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، ولكنه لم يكن بشراء مثلما حصل بالنسبة للعيينة، ولكنه كان بإقطاع. كان ذلك حدثاً مهماً جعله المؤرخ محمد الفاخري (١١٨٦-١٢٧٧هـ) بداية لتاريخه فقال: " وفيها قدم مانع بن ربيعة المريدي على ابن درع صاحب حَجْر والجِزْعَة من بلده القديمة وهي الدرعية عند القطيف، وهو من قبيلته، فأعطاه المليبيد وغَصِيْبَة[٩] المعروفة فنزلها وعمرها، واتسعت العمارة فيها والغرس في نواحيها، وعمرتها ذريته من بعده وجيرانهم."[١٠] هكذا كانت البداية بهذين الموضعين،

---

(٦) مؤلف مجهول، *كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب*، دراسة وتحقيق وتعليق عبدالله الصالح العثيمين (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ)، ٥٤.

(٧) توسع عمران الرياض في وقتنا الحاضر حتى وصل إلى مشارف الدرعية.

(٨) عبدالله بن محمد بن خميس، *الدرعية*، ط ١ (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٢هـ)، ٤٦.

(٩) لمعرفة هذين الموقعين وغيرهما من المواقع التي نشأت بعد ذلك فيما عرف بالدرعية، انظر: وليام فيسي، *الدرعية والدولة السعودية الأولى* (الرياض: مؤسسة التراث، ١٤١٩هـ)، ٨١.

(١٠) الفاخري، *تاريخ الفاخري*، ٨١- ٨٢.

واللذين يبدو من سياق الرواية أنهما تحت سيادة ابن درع، ولكن عند تفحص هذه الرواية المهمة، في ضوء الظروف التاريخية لتلك الفترة، نخرج بعدة ملاحظات:

أولاً: يفترض أن يرد خبر تأسيس الدرعية في كتب الحوليات المبكرة لرواد المؤرخين النجديين، ولكن الأمر لم يكن كذلك. عند استعراض هذه التواريخ نجد أن الشيخ أحمد بن محمد المنقور (١٠٦٧-١١٢٥ هـ) ابتدأ تاريخه بحوادث سنة ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م،[١١] ولكنه لم يذكر شيئاً حول تأسيس الدرعية. كما يلاحظ ذلك عند كل من: محمد بن ربيعة العوسجي (١٠٦٥- ١١٥٨ هـ)، ومحمد بن عبدالله بن يوسف (عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري)، اللذين ابتدآ حولياتهما بحوادث سنة ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١م.[١٢] أما محمد بن حمد بن عباد العوسجي (؟ -١١٥٧هـ)، فابتدأ تاريخه بحوادث سنة ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢ م،[١٣] ولكنه لم يورد شيئاً حول تأسيس الدرعية. تتشابه هذه التواريخ في قصرها وشح معلوماتها، ولا تخلو من تشابه في مادتها. كذلك يلاحظ عليها مع أنها أقدم وأقرب زمنياً إلى عصر تأسيس الدرعية، إلا أنها سابقة لظهورها وبروزها كعاصمة لدولة قوية، ولذلك فإن اهتمام المؤرخين مثل الفاخري وابن بشر وابن

(١١) انظر: *تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور*، تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ)، ٣٩.

(١٢) انظر: *تاريخ ابن ربيعة*، دراسة وتحقيق عبدالله بن يوسف الشبل (الرياض: النادي الأدبي، ١٤٠٦هـ)، ٥٧؛ ومحمد بن عبدالله بن يوسف، *تاريخ ابن يوسف*، دراسة وتحقيق عويضة بن متيريك الجهني (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ)، ٩٩.

(١٣) انظر: محمد بن حمد بن عباد العوسجي، *تاريخ ابن عباد*، دراسة وتحقيق عبدالله بن يوسف الشبل(الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ)، ٥٥.

عيسى بإيراد ذلك إلخبر، ربما كان مدفوعاً بما حصلت عليه تلك المدينة من شهرة ومجد في عصرهم.

ثانياً: أقدم صاحب الأرض، ابن درع، على إقطاع أبناء عمومته في منطقة بعيدة نسبياً، تقع إلى الشمال من مركز إمارته في حجر والجزعة، فلماذا لم يُقطعهم في المناطق الواقعة إلى الجنوب من هاتين البلدتين؟ سنحاول أن نجد الإجابة في ثنايا هذا البحث، ولكن بعض المصادر ذكرت أن هذه المناطق، وغيرها من المناطق، وخاصةً في وادي حنيفة، كانت أثناء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، تحكم من قبل فروع مختلفة من بني حنيفة، مثل آل يزيد ومزيد.(١٤) من المهم هنا أن نلاحظ أن الدروع، جماعة ابن درع، لم يبرز لهم إمارة في هذه المنطقة، سوى في القرن التاسع الهجري/ إلخامس عشر الميلادي، وهذا يعني أنه ربما نشب صراع بين الفئات المختلفة من بني حنيفة، برز على أثره الدروع كحكام لحجر والجزعة.

ثالثاً: كانت ظروف تأسيس الدرعية في تلك الفترة المبكرة مختلفةً بعض الشيء عن غيرها من البلدان الأخرى في نجد والذي يتم عادةً تأسيسها واستيطانها من قبل هجرات إقليمية، أي من داخل الإقليم نفسه، مثلما رأينا سابقاً في حالة التويم والعيينة وغيرهما من البلدان التي عمرت في نجد في تلك الفترة. لكننا هنا نلاحظ أن هذه البلدة تم تأسيسها على يد قادم من خارج الإقليم وذلك عندما وفد مانع المريدي على رأس جماعته من شرق الجزيرة العربية إلى ابن درع صاحب حجر والجزعة فأقطعه الموقعين المعروفين بالمليبيد وغصيبة وما بينهما في وادي حنيفة. تذكر المصادر المتأخرة أنه أطلق على هذه البلدة الجديدة اسم الدرعية؛ وذلك إما نسبةً إلى بلدتهم القديمة الدرعية التي قدموا

(١٤) لمزيد من المعلومات انظر: حمد الجاسر، *مدينة الرياض* (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ)، ٥٨ - ٦٠.

منها من شرق الجزيرة العربية. أو نسبةً إلى ابن درع الذي منحهم هذا الموطن الجديد.[١٥] ولكن نظراً لشح الرواية التاريخية، فلا ندري متى تم إطلاق اسم الدرعية على ذلك المكان؟

رابعاً: نلاحظ على هذا النص وغيره من النصوص التي تعرضت لتاريخ نشأة الدرعية أننا لا نجد في المصادر التي بين أيدينا إلا الاسم الأخير لصاحب أو حاكم حجر والجزعة. لا شك أن هذا الأمر يثير الاستغراب لدى الباحث في تاريخ هذه المنطقة. فكيف تذكر المصادر اسم الوافد، مانع المريدي، ولا تذكر إلا الاسم الأخير لابن درع - هكذا - وهو المُقطِع وصاحب النفوذ والإمارة في تلك الفترة ؟ كما وصفه بعض المؤرخين بأنه كان "رجلاً موسراً ذا ممتلكات تحتاج إلى عناية وتطوير."[١٦] بالإضافة إلى ذلك، فإننا لا نجد إشارة لاسمه الأول في الموروثات الشعبية من قصص وأشعار وغيرها.

من المؤكد أن ندرة التدوين التاريخي في تلك الفترة، يعد السبب الأول في قلة المعلومات حول ابن درع حتى أننا نجهل اسمه الأول، ولكن ربما نجد تعليلاً لذلك في أن ابن درع لم يشتهر وتقوى إمارته لتصبح دولةً عظيمةً مثلما حصل بالنسبة لمانع المريدي الذي استطاعت ذريته تعمير المليبيد وغصيبة والتوسع فيما حولهما،[١٧] وهذا لم يكن ليحصل لولا نماء حكم المردة في هذه المنطقة. من ناحية أخرى، فإن مما يثير الاستغراب كذلك أننا نجهل مصير ابن درع ومصير خلفائه في الحكم وكيف انتهى حكمهم؟ ولكن من المعروف أن بلدة حجر مرت بتطورات أدت إلى إضعافها.[١٨] تعاقب على حكم

---

(١٥) الجاسر، *مدينة الرياض*، ص ٨١.

(١٦) هاري سنت جون فيلبي، *تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب*، تعريب عمر الديراوي، ط ٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٨هـ)، ١١. ولكن مما يؤخذ على فيلبي أنه لم يخبرنا بمصدر هذه الرواية أو على أي أساس بنى هذا الخبر.

(١٧) ابن عيسى، تاريخ، ٣٦ - ٤١.

(١٨) كان من أبرزها غزوة شريف مكة حسن بن أبي نمي على معكال (إحدى محلات حجر) سنة ٩٨٦ هـ، انظر: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي، *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي* (القاهرة: المكتبة السلفية، د. ت.)، ٤: ٣٦٨- ٣٦٩.

حجر، التي تغير اسمها إلى معكال ثم مقرن وأخيراً الرياض، عدد من الأمراء كان آخرهم دهام بن دواس الذي عاصر ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.[١٩]

خامساً: كان اتجاه ومسار الهجرة التقليدي في الجزيرة العربية غالباً ما يكون من الغرب إلى الشمال والشرق، ولكن هجرة هذه المجموعة كانت من الشرق إلى وسط الجزيرة (نجد) فلماذا ؟ علل بعضهم ذلك بأسباب بيئية، وهي أن القوم استوبأوا منطقتهم وأنهكتهم حماها،[٢٠] ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يفكروا بالهجرة إلا في ذلك الوقت؟! مما يمكن أن يقدم تفسيراً لذلك هو أن الرمال في ذلك الزمن ربما بدأت تغزو هذه المنطقة ولذا فكروا في الهجرة. ومما يمكن أن يقال في تفسير ذلك هو أن الهجرة بشكل عام لا تحدث إلا لأسباب اقتصادية أو سياسية. ويبدو أن العامل الأخير كان أكثر تأثيراً في تحديد وجهة هذه الهجرة. فمن المعروف أن اقتصاد شرق الجزيرة العربية كثيراً ما جذب المهاجرين إليها، بخلاف نجد التي كانت دائماً منطقة طرد سكاني نظراً لجفافها وقلة إمكانياتها الاقتصادية. ولنفترض جدلاً أن هذه الهجرة كانت بدوافع اقتصادية، فلماذا لم تتجه إلى أي مكان آخر في شرق الجزيرة العربية ؛ ليكون أيسر وصولاً وأوفر اقتصاداً؟ كما أننا نلاحظ أن المصادر لا تذكر بقيةً للمردة في موطنهم الأصلي الذي هاجروا منه مما يدل على أنها كانت هجرة جماعية. من ناحية أخرى، يمكن أن نجد تفسيراً لذلك في ظروف نجد أكثر مما هي في ظروف شرق الجزيرة العربية، وخاصةً الظروف المحيطة بابن درع وإمارته في حجر والجزعة، فلربما لاحظ أن التغيرات والتطورات التي تجري في المنطقة، كانت تتجه في غير صالحه، ومن هنا شجع أبناء عمومته على ترك مناطقهم والقدوم إليه

(١٩) تغير مسمى المدينة من حجر إلى معكال ثم مقرن وأخيراً الرياض. لمزيد من المعلومات انظر: حمد الجاسر، *مدينة الرياض*، ٥٨ - ٧٠.

(٢٠) عبدالله بن محمد بن خميس، *معجم اليمامة*، ط ١(الرياض: مطبعة الفرزدق، ١٣٩٨هـ)، ١: ٤١٦.

كي يتقوى بهم ضد خصومه في وادي حنيفة. بالإضافة إلى ذلك، فهناك من يرى احتمالية وجود مشاكل بين مانع المريدي وقومه مع الدولة الجبرية التي كانت تحكم شرق الجزيرة العربية في تلك الفترة.(٢١)

سادساً: أشار النص بوضوح إلى توسع الدرعية ونموها وهذا مؤشر يدل - كما أوضحنا سابقاً - على قوة هذه الإمارة اقتصادياً وتماسكها سياسياً. كما أردف الفاخري، في روايته حول تأسيس الدرعية بكلمة مثيرة للاهتمام وهي كلمة " جيرانهم " على أنهم من بين من استوطن الدرعية وعمروها بجانب ذرية مانع بن ربيعة المريدي. كما نلاحظ تشابه هذا الخبر في رواية ابن بشر(١٢١٠ - ١٢٩٠هـ) وذلك باستخدام كلمة "جيرانهم".(٢٢) والحقيقة أن هذه الكلمة تدل بلا شك على أنهم أي " الجيران " ليسوا من المؤسسين الأوائل للدرعية، وهم جماعة مانع المريدي. كما أنه لا بد من ملاحظة أن هذه الكلمة وردت في سياق خبر تأسيس الدرعية، ومرحلة التأسيس تعتمد عادةً على المؤسسين الأوائل. لذا، فمن المؤكد أن الجيران الذين يتحدث عنهم كل من الفاخري وابن بشر في روايتيهما لا ينتمون إلى فترة القرن التاسع الهجري، أي فترة التأسيس، ولكنهم ظهروا في فترة لاحقة لم يحددا تاريخها.

عند مقارنة خبر تأسيس الدرعية بمناطق أخرى، نجد أن كلمة " جيران " أطلقت على من استوطن البلدة بعد أسرة المؤسسين، وهم ليسوا من نفس الأسرة. نجد ذلك واضحاً عند ابن عيسى في وصفه لعلاقة الوهبة في أُشيقر مع بني وائل الذين وصفهم بأنهم " جيران " الوهبة، وكذلك الحال بالنسبة لمن استوطن المجمعة بجانب المؤسس عبدالله

(٢١) عبدالله صالح العثيمين، *تاريخ المملكة العربية السعودية*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ)، ١: ٨١.

(٢٢) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٢٩٦-٢٩٧.

الشمري وأولاده.[٢٣] لابد لنا من التذكير بأن هذين المؤرخين لم يكونا معاصرين بل كتبا عن حدث سبق عصرهما بعدة قرون، ويبدو أن ما قصداه بهذه الكلمة: " جيرانهم " هو اعتباراً بما صار عليه الحال بعد أن أصبحت الدرعية عاصمة لدولة حكمت معظم أرجاء الجزيرة العربية. من ناحية أخرى، فإننا لا يمكننا التسليم بذلك، فقد وردت بعض الإشارات إلى توسع الدرعية وسكنها من قبل أسر أخرى وأبرز مثال على ذلك هم آل سويلم الذين استضافوا الشيخ محمد بن عبدالوهاب عشية وصوله قادماً من العيينة.[٢٤]

مجتمع الدرعية وفئاته

إن المستقرئ لتاريخ نجد الحضري الحديث - وربما غيره من المناطق ذات الظروف المشابهة - يلحظ أن هناك عدة أمور يمكن اعتبارها مؤشرات على عمارة ونمو البلدان، ويأتي على رأس هذه القائمة الأنشطة السياسية والعسكرية. كذلك تعد الهجرة مؤشراً مهماً في هذا السياق خاصةً عندما تكون الهجرة تعود في الأساس لأسباب اقتصادية وليست سياسية. يتضح هذا عندما تصبح موارد الرزق المحلية شحيحة وغير كافية لسد حاجة السكان، فيضطر قسم منهم إلى النزوح بحثاً عن الرزق في مكان آخر، وتعد هجرة آل مدلج من أشيقر سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠م، أبرز مثال على ذلك.[٢٥] أما أحوال مجتمع الدرعية في تاريخها المبكر، قبل أن تصبح عاصمة، فمن الواضح أن المردة أمضوا فترة طويلة لتأسيس أنفسهم في مقرهم الجديد، وقد صاحب هذه الفترة هدوءاً واستقراراً، ولكن الأمر تغير فيما بعد فبدأنا نلحظ إشارات إلى هجرات متعددة خرجت منها إلى

(٢٣) ابن عيسى، *تاريخ*، ٢٨ - ٢٩، ٣٢ - ٣٣.

(٢٤) حسين بن غنام، *روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام*، ط ١ (الرياض: المكتبة الأهلية، ١٣٦٨ هـ)، ٢: ٣-٤.

(٢٥) للمزيد حول هذا الموضوع انظر: ابن عيسى، *تاريخ*، ٢٨ - ٢٩.

المناطق المجاورة، بل وإلى خارج الجزيرة العربية (مثلما سنوضح لاحقاً)، وخاصةً إلى بلدة الزبير[٢٦] في جنوب العراق.

بعد مرور ثلاثة أجيال على استقرار المردة في موطنهم الجديد، وذلك في عهد إمارة إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي، هاجر بعض أبنائه إلى أماكن جديدة لا تبعد كثيراً عن المليبيد وغصيبة. لا نعرف أسباب ووقت هجرة أولئك الابناء، ولكن يبدو أنها حصلت قبيل نهاية إمارة والدهم، أو بعدها بقليل. هاجر الابن الأول عبدالرحمن و" نزل ضرما وجو ونواحيها وسكنتها ذريته من بعده، وهم المعروفون بالشيوخ في ضرما،" وقد تمكنوا من الوصول إلى إمارة تلك البلدة.[٢٧] أما الابن الآخر، سيف، فانتقل إلى موضع قريب يسمى أبا الكباش، واستقر هناك وتعرف ذريته بآل يحيى. وكما يبدو من سياق الروايات فإن عبدالله، الأخ الثالث، هاجر،[٢٨] أو هاجرت أجزاء من أسرته فيما بعد، فمنهم آل حسين ساكنو الأحساء.[٢٩]

هدأت المنطقة لبعض الوقت كما يبدو، فلم تذكر المصادر أي حوادث قد تؤدي إلى الهجرة، ولكن بعد مرور جيلين آخرين، ولأسباب سياسية، هاجر وطبان بن ربيعة

---

(٢٦) حول بلدة الزبير ونشأتها، انظر: حسين خلف الشيخ خزعل، *تاريخ الكويت السياسي* (بيروت: مطابع دار الكتب، ١٩٦٢ م)، ١: ٨٣ - ٨٤؛ وعبدالرزاق عبدالمحسن الصانع وعبدالعزيز عمر العلي، *إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي ٩٧٩ - ١٤٠٠ هـ*، ط ١ (الكويت: ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م)، ١: ١٨- ٤٩.

(٢٧) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٧ - ٣٨.

(٢٨) ذكر الرويشد أن عبدالله بن إبراهيم بن موسى بقي في الدرعية بجانب أخيه مرخان، ولكن ليس له من الأمر شيء. انظر: عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، *الجداول الأسرية لسلالات العائلة الملكية السعودية*، ط١(الرياض: دار الشبل، ١٤١٩هـ)، ١٢.

(٢٩) عبدالله بن محمد البسام، *تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق*، دراسة وتحقيق إبراهيم الخالدي، ط ١(الكويت: شركة المختلف، ٢٠٠٠ م)، ٣٠.

بن مرخان، ومرخان هذا هو الابن الرابع لإبراهيم بن موسى، إلى الزبير في جنوب العراق.[٣٠] وكانت هذه الهجرة واضحة الأسباب بخلاف هجرة الثلاثة الأوائل التي لم تخبرنا المصادر عن أسبابها، ولكن يبدو أنها لا تختلف حالاً عن الأخيرة. ومما يمكن استنباطه من استقراء الروايات التاريخية على قلتها هو أن الهجرات كانت فردية، وأن المهاجرين ينتمون إلى المردة، أي إلى البيت الحاكم والذي غالباً ما تهيأت له ظروف الكسب الاقتصادي أكثر من غيره من شرائح المجتمع الأخرى. هذا لا يعني بالضرورة استبعاد الأسباب الاقتصادية كليةً، ولكنه يعزز الأسباب السياسية خاصةً عندما ننظر للأمور في سياقها التاريخي. مع التسليم بارتباط الاقتصاد بالسياسة ارتباطاً وثيقاً، فقد كانت الظروف التاريخية المهيمنة هي كثرة الخلافات والتناحر على الحكم.

لفهم الدوافع وراء هذه الحركة الاجتماعية، فلا بد من التعرف على الظروف التاريخية التي تمت فيها. قضى مانع المريدي فترة حكمه مؤسساً لحكم المردة في وادي حنيفة، وفي تشجيع أتباعه من المردة على الاستقرار وتشييد المساكن واستصلاح الأرض وزرعها، ولكننا لا ندري أي من الموضعين اتخذه مقراً لحكمه، المليبيد أم غصيبة؟ ومن الواضح أن عدد المردة عند انتقالهم كان قليلاً، وهذا ما جعل قيادتهم تشجع على الاستقرار حتى من خارج الأسرة، وهذا ما عده البعض سبباً من أسباب قوة وشهرة ربيعة بن مانع، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده.[٣١] استمر هذا النهج التوطني، والذي يعد نوعاً من المجازفة، فيما لو زاد عدد الوافدين الجدد بشكل يهدد مركز المردة في المجتمع، ولكن يبدو أنها مجازفةً محسوبة،[٣٢] خاصةً إذا أخذنا في الحسبان ما يعود على

(٣٠) تذكر المصادر أن سبب هذه الهجرة هو قتل ابن عمه مرخان بن مقرن بن مرخان، للمزيد انظر: ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٧- ٣٩، ٤٥؛ وابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ١٤-١٥، وابن البسام، *تحفة المشتاق*، ٣٠ - ٣١.

(٣١) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٦.

(٣٢) لم يخرج الحكم عن أسرة المردة، خلال فترة البحث، إلا في الفترة ما بين عامي ١١٠٧-١١٢١ هـ، بسبب تفاقم النزاع بينهم (سنتحدث عنه لاحقاً إن شاء الله).

القيادة السياسية من فوائد اقتصادية وقوة عددية - عسكرية تستخدمها ضد خصومها. أصبح موسى بن ربيعة، في إطار هذا النهج، صاحب شهرة كبيرة مكنته من تسنم الحكم أثناء حياة والده. ولكن المصادر لم توضح كيف تمت تلك السابقة الخطيرة، والتي من المؤكد أن الأب ربيعة لم يقبلها بسهولة، ونتيجة لذلك حصل خلاف بين الطرفين وبعد محاولة فاشلة من قبل موسى لقتل أبيه لجأ الأخير إلى العيينة.(٣٣) مما يؤسف له في هذا المجال، هو شح الروايات التاريخية حول كثير من جوانب تاريخ الدرعية في بعض الأمور الأساسية مثل معرفة تسلسل الحكام وهو ما تركز عليه معظم الحوليات المبكرة، فما بالك بالجوانب الاجتماعية، وأخبار بقية فئات المجتمع الأخرى ومدى مشاركتها في الأحداث العامة، وما يطرأ عليها من تغيرات.

من الممكن أن نفترض هنا وبشيء من القطعية أن الخلاف بين الابن وأبيه، يعود في الأساس لأسباب سياسية. أورد ابن بشر في ثنايا وصفه لموسى بن ربيعة بأنه " صار أشهر من أبيه، وترأس في حياته "، وبعد وقعة مع جيرانه آل يزيد، جرح فيها جروح كثيرة، أردف بعد ذلك بهذه الرواية: " ثم أنه احتال على قتل أبيه ربيعة ..... إلخ."(٣٤) وما يمكن أن يفهم من سياق الأحداث العامة وهذه الرواية بشكل خاص، أنها مرتبطة بعدم نجاحه في تحقيق ما كان يطمح إليه من توسعات في وادي حنيفة، عندما كان والده مقيماً عنده قبل محاولة القتل، ومن ثم اللجوء إلى العيينة. من هنا وردت العلاقة بين هذا الخلاف والحروب مع آل يزيد وكأنها سبب لما حصل بين الأب وابنه. لا ندري ما طبيعة هذا الخلاف بشكل دقيق، ولكن يبدو أن له علاقة بكيفية إدارة الحرب مع آل يزيد، مع أن الحاكم كان الابن موسى والذي بلا شك لم يكن راضياً عن إدارة والده لها، وإلا لما كان هناك حاجة لتربعه على كرسي الإمارة بدلاً من الحاكم السابق الذي هو أبوه.

---

(٣٣) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٧؛ وراشد بن علي بن جريس الحنبلي، *مثير الوجد في أنساب ملوك نجد*، ط ٢ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ)، ٢١.

(٣٤) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢ : ١٤.

من ناحية أخرى، نجد في مقابل هذه الهجرات الفردية من البيت الحاكم، تغيراً في تركيبة مجتمع الدرعية وذلك بتزايد عدد السكان من الموالفة وغيرهم، وخاصةً في عهد إمارة ربيعة وابنه موسى. لجأ ربيعة بن مانع إلى العيينة واستقل موسى بالإمارة وكان ذلك في أوائل القرن العاشر الهجري.[٣٥] وهكذا أخذ موسى يدير الحرب كما يريد، فقام بغزوة على آل يزيد في النعيمة[٣٦] والوصيل و استولى على منازلهم ودمرها وقتل منهم أكثر من ثمانين رجلاً ولم تقم لهم قائمةً بعد تلك الواقعة.[٣٧] إن مما يلاحظ على خبر تلك الغزوة هو تشكيلة الجيش الغازي والذي كان مؤلفاً من المردة، وهذا أمر طبيعي، ولكنه زاد على ذلك بعبارة " وجميع من عنده من الموالفة، "[٣٨] مما يؤكد دور الموالفة في هذا الصراع. وهكذا نرى أنه أصبح للموالفة، بعد ثلاثة أجيال من تأسيس الدرعية، حضور عددي مهم مكنهم من قلب الموازين العسكرية في وادي حنيفة لصالح مستوطنهم الجديد، الدرعية؛ لأنهم لم يكونوا من مؤسسي البلدة. كان أبرز شاهد على كثرتهم هو أن اسمهم غلب على هذه الوقعة التي أصبحت مضرب المثل، فيقال " صبحهم فلان صباح الموالفة لآل يزيد."[٣٩]

---

(٣٥) خالد محمد الفرج، *الخبر والعيان في تاريخ نجد*، تحقيق ودراسة عبدالرحمن عبدالله الشقير، ط ١ (الرياض: مكتية العبيكان، ١٤٢١ هـ)، ١٣٣.

(٣٦) وردت عند ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٤، بهذا الشكل " النعيمة "، ولكن ابن خميس في معجم اليمامة يرى أن صحة الاسم هو " النعمية، " وأنها الآن تسمى العلب، انظر: *الموسوعة الجغرافية للأماكن في المملكة العربية السعودية*، قرص مضغوط، (الرياض: الجمعية الجغرافية السعودية) الإصدار الأول، ١٤١٨هـ، مادة النعمية.

(٣٧) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ١٤.

(٣٨) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ١٤.

(٣٩) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٧.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: من هم هؤلاء الموالفة الذين استطاع بهم موسى بن ربيعة، ثالث حاكم من أسرة المردة بعد استقرارهم في المليبيد وغصيبة، أن يستولي على مناطق مهمة في وادي حنيفة؟ لم تورد المصادر ذكراً للموالفة يساعدنا على فهمهم، وكيف أصبح لهم دور في مناطق حكم المردة، باستثناء ما ورد من إشارات قليلة إلى دورهم في معارك موسى بن ربيعة. ولكن ابن خميس في *معجم اليمامة*، يقول إنهم أبناء عمومة آل يزيد، أي من فروع بني حنيفة، وكان بين الطرفين عداء،[٤٠] ومن المؤكد أن موسى بن ربيعة استغله لصالحه للتوسع في أعلى الوادي. كما أن في حكم المؤكد أن فئات منهم كانت قد استوطنت مناطق حكم المردة (المليبيد وغصيبة) كما توحي به رواية ابن بشر عند قوله: " جميع من عنده،" وذلك بسبب الخلاف مع أبناء عمومتهم آل يزيد. ومما لا شك فيه أن هذه الزيادة في عدد السكان زادت من قوة المردة، التي اتضحت خلال المعارك مع آل يزيد في الوصيل والنعمية. بعد حروب موسى بن ربيعة العنيفة مع آل يزيد، يبدو أن الجو صفا من المنافسات على مستوى وادي حنيفة، وكذلك داخلياً، إلا أن الوضع الداخلي لم يكتب له الاستقرار طويلاً، مما أدى فيما بعد إلى هجرة بعض من أبناء إبراهيم بن موسى، والتي ربما أنها كانت لأسباب سياسية وخلافات على الحكم، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ربما ننظر لحركة مجتمع الدرعية في هذه الفترة المبكرة من زاوية أخرى، وهو أن هذه الهجرات قد لا تكون لأسباب سياسية بحتة، وإنما كان الدافع وراءها حب التملك في أماكن جديدة من وادي حنيفة، خاصةً وأنها جاءت بعد القضاء على منافسة آل يزيد.

---

(٤٠) *الموسوعة الجغرافية للأماكن في المملكة العربية السعودية*، مادة النعمية. من ناحية أخرى اكتفى الشيخ حمد الجاسر عند ذكر الموالفة بأنهم " كانوا من سكان وادي حنيفة القدماء، كآل يزيد والدروع،" حمد الجاسر، *جمهرة أنساب الأسر*، ٢: ٨٨٠.

يولي سكان البلدان النجدية اهتماماً كبيراً بالمواضع المجاورة مباشرةً لبلدانهم ويعدونها جزءاً أساسياً منها. يأتي على رأس هذه المواضع ما يسمى بالأحمية (جمع حمى)، وهو موقع من الأرض عادةً ما يكون مجاوراً للبلدة على بعد عدة كيلومترات منها، ويتميز بخصب أرضه وكثرة أعشابه وتوافر الحطب فيه. يعد الحمى مخزناً مشاعاً لأهل البلدة جميعاً فيرتادونه للزراعة البعلية وللاحتطاب والرعي وغيره من المصالح العامة لأهل البلدة. يضاف إلى ذلك ما يسمى بالمساييل.[٤١] بالإضافة إلى استفادة المزارع من مياه الأمطار التي تسقيها وتجلب السماد الطبيعي لها، فأنها ترفع منسوب المياه في آبارها، ولذلك ينظر أهل البلدة إلى من يعترض سبيل تلك المساييل بتحويل مسارها على أنه يهدد أمنهم الاقتصادي بحبس المياه أو أخذ جزء كبير منها أو كلها، خاصةً عندما يكون السيل ضعيفاً. في ظل هذين الأمرين ربما نجد تفسيراً لصراع الدرعية مع جيرانها وربما هجرات بعض من سكأنها إلى مناطق قريبة مثل أبا الكباش.

على أية حال، استمر مرخان بن إبراهيم بن موسى يحكم، ويبدو أن حكمه اتسم بالاستقرار، خاصةً بعد هجرة أخويه عبدالرحمن وسيف، أما أخوه الثالث عبدالله فقنع ببقائه في الدرعية.[٤٢] انقسم المردة بعد وفاة مرخان إلى قسمين كبيرين هما أحفاد الأخوين مقرن وربيعة ابني مرخان بن إبراهيم بن موسى. عرفت ذرية مقرن بن مرخان بآل مقرن وذرية ربيعة بن مرخان بآل وطبان نسبة إلى ولده وطبان والذي قيل إن عدد

(٤١) المساييل هي المناطق التي يندرج منها السيل عند نزول الأمطار إلى مزارع وبساتين البلدة عبر قنوات على شكل خنادق تحفر خصيصاً لذلك فتوصل الماء من الوادي عند جريانه إلى المزارع، انظر: عبدالمحسن بن محمد بن عبدالعزيز بن معمر، *إمارة العيينة*، ١١٨ - ١٢٥، حول كيفية تعامل الناس مع مياه الأمطار، وكيفية الاستفادة من مياه السيول.

(٤٢) ابن خميس، *الدرعية*، ٨٧.

أبنائه بلغ أربعة عشر ولداً.[٤٣] تعاقب الأخوان ربيعة ومقرن على حكم الدرعية لمدة طويلة استمرت إلى ما بعد منتصف القرن الحادي عشر الهجري بقليل. طرح الأخوان أنموذجاً في الحكم حتى وإن كان توفيقياً كما يبدو، إلا أنه لم يكن مألوفاً في نجد.

تفتقر كتب الحوليات المبكرة مثل المنقور وابن ربيعة وابن عباد، أو حتى المصادر غير المعاصرة، مثل ابن بشر وابن عيسى والفاخري وغيرهم، إلى ما يساعد على فهم تشكيلة وفئات مجتمع الدرعية، ولذا فلا مناص من الاعتماد على بعض الإشارات التاريخية القليلة التي تعين الباحث على النظر للأمور في سياقها التاريخي وفي حدود لا تخرج عن مقتضى الأحوال. نجهل هنا الكثير عن صيغة الحكم بين الأخوين، ربيعة ومقرن، فهل كانت السلطة مداولةً بين الاثنين من فترة إلى أخرى أم أنهما اقتسما السلطات، أم ماذا؟ كذلك لا نعرف شيئاً عن كيف آل الحكم إليهما، ولماذا اضطرا إلى اتباع هذا النمط الغريب من الحكم، ولا عن تاريخ وظروف وفاتهما ولا من هو الذي توفي قبل الآخر. وردت إشارة عند الرويشد (من دون أن يذكر المصدر)، حول هذا الموضوع عندما قال: " ويظهر أن ربيعة تنازل في آخر الأمر لأخيه مقرن، الذي يتسم بالكفاءة وحسن الإدارة."[٤٤] يصعب قبول مثل هذا الأمر، في ضوء نظام المشاركة - والذي لم يكن ليبرز لولا إصرار الطرفين على التمسك بحقيهما في الحكم - ولكن ربما أن تنازل ربيعة كان؛ نتيجةً لكبر سنه، مما قد يجعلنا نميل إلى أن مقرن بقي على قيد الحياة أميراً بعد أن توفي أخوه. لاشك أن هذه الصيغة التوفيقية من الحكم قد ينظر لها البعض على أنها دليل ضعف ولكنها كانت موفقة، كما يتضح من حجهما معاً سنة ١٠٣٩ هـ/

(٤٣) للمزيد حول تفرعات الأسرة انظر: الحنبلي، *مثير الوجد*، ٢٢ – ٢٣؛ والفرج، *الخبر والعيان*، ١٣٣-١٣٤؛ والرويشد، *الجداول الأسرية*، ١١- ١٢.

(٤٤) الرويشد، *الجداول الأسرية*، ١٢.

١٦٢٦م، واستقرار البلدة في تلك الفترة، كما يبدو من عدم وجود إشارات إلى حوادث دموية تؤدي إلى الهجرة.(٤٥) من ناحية أخرى، فإن المصادر لم تخبرنا شيئاً عن بقية فئات المجتمع الأخرى، مما يجعلنا نفترض أن أحوالها كانت مستقرة تحت حكم الأخوين ربيعة ومقرن.

نهاية عهد الوفاق

انتهى عهد الوفاق بنهاية حكم الأخوين وبدأ النزاع بين ابنيهما مرخان بن مقرن ووطبان بن ربيعة. لاشك أن ما سلكه أبواهما من منهج في الحكم جعل الأمر ليس سهلاً بالنسبة لهما، فيما لو حاولا إكمال ذلك المنهج القائم على المشاركة في الحكم. مرت فترة من الزمن على إمارة الدرعية بعد وفاة الأخوين مقرن وربيعة ونحن لا نعلم من هو الحاكم بها، وانتهى ذلك بمقتل مرخان بن مقرن سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤م، وفرار ابن عمه وطبان بن ربيعة إلى جنوب العراق حيث عاش هناك وأصبح له ذرية نافذة تمكنت من القيام بدور سياسي هام (سنتحدث عنه لاحقاً)، وخاصةً في بلدة الزبير.(٤٦) لكننا لو نظرنا إلى الأمر من واقعه لرأينا أن وطبان بن ربيعة لو كان هو الحاكم فعلاً، لما أقدم على ما أقدم عليه، ثم هاجر إلى خارج الجزيرة العربية، وكان المتوقع في مثل هذه الحالة أن يستمر في إمارته. كما يبدو فأنه لم يحصل على تأييد من مجتمع الدرعية، أو على الأقل من الفئات الفاعلة من المردة، وهذا مما يجعلنا نميل إلى القول بأن الإمارة كانت في يد مرخان بن مقرن. من هذه الفرضية، يمكن أن نستنتج أن ربيعة عند تنازله لأخيه مقرن

(٤٥) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣١١.

(٤٦) البسام، *تحفة المشتاق*، ١٢٣؛ والفرج، *الخبر والعيان*، ١٣٣؛ والجاسر، *جمهرة أنساب الأسر*، ٢: ٩٢٦ - ٩٣١؛ والشيخ خزعل، *تاريخ*، ٨٤ - ٨٥.

عن الحكم ربما لمرضه أو لكبر سنه،[٤٧] لم يكن في نيته التنازل عن حقوقه السياسية، التي سيرثها أبناؤه من بعده، أو على أقل تقدير هكذا كان فهم الأبناء لتلك القضية، وهي أن حقهم لم يسقط بتنازل والدهم عن الحكم. وفي هذا السياق، ألمح فيلبي إلى سابقة لا تخلو من بعض الدلالة، وهي أن هجرة عبدالرحمن وسيف ابني إبراهيم بن موسى كانت مشروطةً بتنازلهما عن حقوقهما في الدرعية.[٤٨] ومما يجب ملاحظته أن ذلك التنازل كان في عهد أبيهما، ومن المؤكد أن حق توارث الحكم كان على رأس قائمة تلك الحقوق.

كان استمرار مقرن بن مرخان حاكماً نتيجةً ربما لما ورثه من زخم الوفاق وجاهه الاجتماعي اللذين سهلاله الأمور فلم نسمع بأي حدث عكر صفو حكمه. لاشك أن الأمر لم يكن كذلك بعد وفاته ولا ندري من خلفه هل هو ابنه مرخان أم ابن أخيه وطبان بن ربيعة؟ يبدو من سياق الأحداث أن الإمارة آلت إلى مرخان بن مقرن بعد وفاة والده بحكم؛ كونه ابناً للحاكم السابق، ومن المؤكد أن هذا مما سيجعل حظوظه فيها أكبر من وطبان أو أي منافس آخر. ولكن وطبان مع ما عرف عنه من طموح، إلا أن وفاة والده المبكرة - إذا صحت الفرضية - أبعدته عن مركز الحكم والقوة، ومن ثم عن المنافسة. بالإضافة إلى ذلك، فإننا لا نعلم هل وصل وطبان فعلاً إلى سدة الحكم بالتناوب مع ابن عمه مرخان بن مقرن عملاً بما كان معمولاً به في عهد أبويهما أم لا؟ ومما هو غني عن القول أن وطبان لم يحصل على ما يريد سواء كان ذلك بتناوب الإمارة أم بتقاسم السلطات، ولهذا بدأ النزاع الذي أودى في النهاية بحياة الأمير مرخان بن مقرن وفرار وطبان بن ربيعة إلى الزبير.[٤٩] مما يمكن ملاحظته من نتف أخبار تلك المنطقة المهمة من

(٤٧) ابن خميس، *الدرعية*، ٨٨.

(٤٨) فيلبي، *تاريخ نجد*، ١٦ - ١٧.

(٤٩) البسام، *تحفة المشتاق*، ٣١.

وادي حنيفة، أنه وبعد أجيال من النمو وزيادة عدد المردة، بالإضافة إلى من استوطن عندهم من غيرهم، انقسم مجتمع تلك الفترة إلى قسمين أو حيين كبيرين، وأصبح ذلك واضحاً بدءاً من فترة وطبان بن ربيعة:

١- الدرعية

كانت الدرعية كما قال ابن عيسى " لذرية وطبان."[٥٠] والحقيقة أننا هنا لا ندري ما مدى دقة المؤرخين المتأخرين عند استخدامهم لكلمة " الدرعية ". كما أننا لا ندري هل كلمة الدرعية مرادفة لكلمة المليبيد؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا اقتصرت الإشارة إلى الدرعية وغصيبة؟ من ناحية أخرى، فأنها إن لم تكن مرادفةً للمليبيد، فإن ذلك يعني أن حياً ثالثاً قد برز أو في طريقه للبروز بجانب الحيين القديمين، وأن إطلاق اسم الدرعية من قبل المؤرخين المتأخرين، جاء من قبيل التجاوز اعتباراً بما صار عليه الحال فيما بعد.

٢- غصيبة

تعد غصيبة توأم المليبيد وقد نمت وتطورت لتصبح معقلاً لآل مقرن.

ذكرت بعض المصادر أن وطبان بن ربيعة، بعد أن أقدم على فعلته في الدرعية، لجأ إلى أمير المنتفق، الشيخ مغامس بن مانع في جنوب العراق،[٥١] ويبدو أن ذلك كان أمراً معقولاً؛ نظراً لأنه يحتاج إلى حماية شخصية قوية، وربما أنه انتقل إلى الزبير بعد أن هدأت الأمور. كان وطبان بن ربيعة شخصية قوية ذات تأثير على الأحداث وذات علاقات خارجية، ربما كانت تجارية، وهو ما يفسر لنا سر اختياره للزبير ملجأً وليس أي

(٥٠) ابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠.

(٥١) الشيخ خزعل، *تاريخ*، ٨٥.

بلدة في نجد، مثلما فعل غيره في ظروف مشابهة.[٥٢] إن وجوده في بلدة قريبة سيجعله قريباً من الأحداث وأكثر قدرةً على التأثير فيها، خاصةً وأن خصومته كانت مع بلدة صغيرة - ربما كان له فيها بعض الأنصار - وليس مع سلطة إقليمية تجعل بقاءه في ذلك الإقليم أمراً مستحيلاً.

اشتهر وطبان بن ربيعة بكثرة أولاده الذين قيل إن عددهم بلغ أربعة عشر ولداً، وكان من بينهم ثاقب الذي أصبحت الأسرة في موطنها الجديد تنسب إليه، آل ثاقب، وارتبطت بعلاقة قوية مع آل السعدون، أمراء قبيلة المنتفق في جنوب العراق.[٥٣] أصبح لهؤلاء الأولاد نشاط سياسي كبير ودور ملحوظ في أمور الحياة العامة في كلا البلدين، الدرعية والزبير، اللذين استوطنوهما. تمكن آل وطبان في موطنهم الجديد من تأسيس أنفسهم بقوة مكنتهم فيما بعد من الوصول إلى إمارة الزبير سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٩ م، في عهد حفيد وطبان، إبراهيم بن ثاقب بن وطبان، وذلك بمساعدة من الشيخ حمود الثامر السعدون.[٥٤] تعاقب على إمارة الزبير عدد من أفراد هذه الأسرة (وإن لم يكن بشكل متسلسل)، وهو موضوع جدير بالبحث والاستقصاء ولكنه خارج نطاق هذه الدراسة.[٥٥] بقي لآل وطبان نفوذ ووجود مؤثر في الدرعية، ولا شك أنهم كانوا على اتصال بفرع الأسرة الآخر في الزبير، والذي بدأ يحصل على منزلة اجتماعية مؤثرة في شؤون تلك البلدة.

بعد حادثة سنة ١٠٦٥ هـ/ ١٦٥٤ م، انتقل الحكم إلى فرع وطبان وذلك بتولي ناصر بن محمد بن وطبان الإمارة. والحقيقة أن هذا الأمر يدعو للتساؤل، فكيف يهرب

(٥٢) لجأ ربيعة بن مانع إلى العيينة بعد خلافه مع ابنه، انظر: ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ١٤.

(٥٣) الصانع والعلي، *إمارة الزبير*، ١: ٧٦.

(٥٤) الصانع والعلي، *إمارة الزبير*، ١: ٧٧.

(٥٥) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: الصانع والعلي، *إمارة الزبير*، ١: ٧٧ - ٧٩، ١٤٨ - ١٦٦.

القاتل، الذي- كما تخبرنا المصادر- لم يستفد من فعلته الشنعاء، وتنتقل الإمارة إلى حفيده؟!.[٥٦] يحتم المنطق في مثل هذه الحال أن يقطف وطبان ثمار عمله وذلك بتسنمه الإمارة ولو لبعض الوقت، ولكننا، في الوقت الذي لا نستبعد ذلك، نعترف بقصور الروايات التاريخية حول هذا الموضوع. من ناحية أخرى، فقد ذكر ابن خميس في كتابه *الدرعية* - من دون أن يذكر مصادره - أن محمد بن مقرن ثأر لقتل أخيه وقتل وطبان بن ربيعة.[٥٧] لكن ما ذكره كان على خلاف تام مع ما ذكرته المصادر المبكرة مثل ابن عيسى والذي أورد الحادثة ولم يذكر أن وطبان قتل، بل قال إنه هرب إلى الزبير.[٥٨] أما ابن بشر فأورد الحادثة، ولكنه لم يورد شيئاً عن حادثة القتل ولا عن اللجوء أو الهروب إلى الزبير. تعد هذه الحقبة التي امتدت ما بين النصف الثاني من القرن الحادي عشر والثلث الأول من القرن الثاني عشر الهجريين، فترة غامضة من تاريخ مجتمع الدرعية. عند تتبعنا لأخبار هذه الفترة نرى أنها تتميز بالضعف والانقسام والتشرذم الذي فكك مجتمع تلك البلدة وخاصة الصفوة الحاكمة من المردة، مما أدى في مرحلة من المراحل إلى خروج الحكم من أيديهم. تعاقب على حكم الدرعية عدد من الحكام بعد مقتل مرخان بن مقرن واختلفت المصادر حول أسماء هؤلاء الحكام. ذكر ابن بشر أن ناصر بن محمد (هكذا ولم يذكر الاسم الأخير وطبان) كان أميراً للدرعية وقتل سنه ١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م،[٥٩] ولكنه لم يذكر اسم الحاكم الذي سبقه ولا الذي لحقه. من ناحية أخرى، أورد ابن رويشد الاسم على أنه ناصر بن محمد بن وطبان (كما ذكرنا سابقاً)، في حين قال ابن خميس إن اسمه ناصر بن محمد بن مقرن وهذا يعني أن الإمارة بقيت في بيت مقرن.[٦٠] مما يؤخذ على

(٥٦) البسام، *تحفة المشتاق*، ٣١؛ والرويشد، *الجداول الأسرية*، ١٢.

(٥٧) ابن خميس، *الدرعية*، ٨٨.

(٥٨) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٩ - ٤٠.

(٥٩) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣٣٢.

(٦٠) للمزيد من المعلومات انظر: ابن خميس، *الدرعية*، ٨٧؛ وابن رويشد، *الجداول الأسرية*، ١٢.

هذين الباحثين أنهما لم يذكرا مصدر معلوماتهما وهل فعلاً اعتمدا فيما أورداه على مصدر معين أم أن هذا ترجيح وتحليل شخصي منهما. اتفق الاثنان على أن هذا الحاكم بعد أن قُتل خلفه والده محمد وتوفي سنة ١١٠٦ هـ/ ١٦٩٤م، ولكنهما اختلفا حول من هو والد محمد. قال ابن خميس إن اسمه محمد بن مقرن في حين قال ابن رويشد إن اسمه محمد بن وطبان.(٦١) وهنا يجب القول بأن رواية ابن خميس تتفق مع ما ذكره خالد الفرج، صاحب *الخبر والعيان*، في أن اسمه كان محمد بن مقرن وتوفي سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م.(٦٢)

هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدرعية تدل على أن مجتمعها كان متشرذماً لدرجة أننا لا نعرف من هو المسؤول الأول في البلدة، فما بالك ببقية فئات المجتمع والتي تتأثر سلباً وإيجاباً بالتقلبات السياسية ومستوى الأمن. ذكر ابن رويشد أن إبراهيم بن وطبان تولى الحكم، في حين ذكر ابن خميس أن الإمارة انتقلت إلى مرخان بن وطبان، ولكن صاحب *الخبر والعيان* لم يورد أي من الاسمين بل اكتفى بالقول إن الإمارة انتقلت إلى إدريس بن وطبان. على أية حال، اتفقت المصادر على أن الإمارة آلت إلى إدريس بن وطبان والذي لم يستطع السيطرة على الفتنة التي أضعفت الصفوة الحاكمة من المردة فانتقل الحكم إلى آل القبس.(٦٣)

كما أشرنا في بداية البحث إلى أن المردة كانوا بحكم التأسيس والرئاسة عماد المجتمع الأول الذي استوطن المليبيد وغصيبة، ولا نظن أن الوضع تغير كثيراً، حتى مع كثرة الوافدين إليهما، أو على الأقل بشكل أوضح إلى غصيبة. كما أن من المؤكد أن خروج السلطة من أيديهم لم يكن بسبب خلل في التركيبة الاجتماعية، ولا بسبب كثرة

(٦١) ابن رويشد، *الجداول الأسرية*، ١٢؛ وابن خميس، *الدرعية*، ٨٧.
(٦٢) الفرج، *الخبر والعيان*، ١٣٤.
(٦٣) ابن رويشد، *الجداول الأسرية*، ١٢؛ وابن خميس، *الدرعية*، ٨٧؛ والفرج، *الخبر والعيان*، ١٣٤.

وقوة آل القبس، الذين لم تذكر المصادر منهم إلا الشخصين اللذين توليا الحكم في الدرعية، بقدر ما كان نتيجةً للحروب الأهلية الطاحنة، التي أضعفت الصفوة الحاكمة من المردة. في خضم هذه الفوضى، استطاع سلطان بن حمد القبس[٦٤] انتزاع السلطة من المردة عام ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥م وهذا في حد ذاته أمر يدعو إلى التساؤل. نجهل الكثير عن آل القبس وكيفية وصولهم إلى الدرعية، وهل فعلاً وصل عددهم إلى الحد الذي يمكنهم من منازعة المردة على السلطة. قبل وصول سلطان إلى الحكم لم نجد أي إشارة إلى أن آل القبس كان لهم نشاط في مجتمع الدرعية،[٦٥] ولا أي منافسة سياسية تؤهلهم للصراع على السلطة مع المردة. ولكن يعد وصولهم إلى السلطة فعلاً خير دليل على أن ذلك المجتمع مر بتغيرات كثيرة لا تسعفنا المصادر بما يمكننا من رصدها. وفي مثل هذه الحال، وهي كثيرة في هذه الدراسة، لا بد من إعمال الذهن والقراءة بين السطور واستنطاق الحوادث التاريخية، لعلنا نجد ما يسد تلك الفجوات ولا يخرجنا عن دائرة العقل والمنطق.

من الأمور التي قد تثير التساؤل لدى الباحث، هو أين الموالفة؟ وما ذا كان دورهم في مثل هذه الأحداث؟ وهم الذين كان لهم دور بارز في بدايات تأسيس الدرعية، كما اتضح ذلك في حروب موسى بن ربيعة ضد النعمية والوصيل. مما لا يقبل الشك أن فترة الفوضى التي حلت بمجتمع الدرعية وبلغت ذروتها في الحقبة الأولى من القرن الثاني عشر الهجري، بين الصفوة الحاكمة من المردة مكنت لسلطان القبس انتزاع إمارة الدرعية. استمر سلطان القبس يحكم حتى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨م ولا نعرف شيئاً عن فترة حكمه ولا عن دور المردة، ولا غيرهم من فئات المجتمع الأخرى، خلال تلك الفترة،

(٦٤) ابن عيسى، *تاريخ*، ٧٧؛ وابن بشر، *عنوان المجد*، ٢ : ٣٤٧. كما وردت إشارة وحيدة عند فيلبي إلى أن سلطان القبس من بني خالد، ولكنه للأسف لم يذكر مصدر هذه المعلومة، انظر: فيلبي، *تاريخ نجد*، ٣٣.

(٦٥) انظر: ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣٥٦، هامش رقم ١.

ولكن يبدو وفي حكم المؤكد أن آل وطبان لم يرضوا بحكمه لأنه يعد مغتصباً للحكم منهم. إن بقاء سلطان القبس حاكماً في الدرعية لمدة ثلاثة عشر عاماً يدل على أنه حصل على نوع من التأييد من بعض فئات المجتمع ولو إلى حين، وإلا لما كان قادراً على الحكم لهذه الفترة الطويلة نسبياً. من ناحيةٍ أخرى، يصعب تصور قدرته على الحكم دون أن يحصل على تأييد من بعض فئات المردة، لكنه لم يستطع المحافظة على ذلك التأييد - على الأقل مثلما كان في بداية الأمر - فساءت الأمور في أواخر عهده وقتل. بالإضافة إلى ذلك، فإن قاتله أو قاتليه لم يتمكنوا من تسنم الإمارة مثلما هو متوقعاً في مثل هذه الحالات، مما يدل على أن آل القبس ما زالوا قادرين على حشد التأييد والتشبث بالحكم، بل وجعله وراثياً. كما أن المصادر لم تذكر لنا شيئاً، حتى ولو إشارة غامضة، عن قتلة سلطان القبس، وإن بدا من المرجح أنهم من المردة؛ لأن الحكم انتزع منهم، وعاد إليهم بعد زوال حكم آل القبس. بعد أن قتل سلطان انتقل الحكم إلى أخيه عبد الله ولكن لم يطل به المقام حيث قتل في العام التالي.(٦٦)

وهكذا فقد المردة حكم الدرعية ولم يسترجعوه إلا بعد أربعة عشر عاما من حكم آل القبس، وبقدر ما كان ذلك مؤشراً على تغير في تركيبة مجتمع الدرعية، فهو كذلك خير دليل على مدى الضعف الذي مني به المردة، وهم الأسرة المؤسسة للدرعية في منتصف القرن التاسع الهجري، ولم تخرج عن حكمهم منذ ذلك الحين، إلا خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة. على أية حال، يبدو أن مقر حكم آل القبس لم يكن في غصيبة؛ نظراً لأنها مقر آل مقرن، بل كان في الدرعية واستمر الحال على ذلك بعد

(٦٦) ذكر ابن خميس في كتابه *الدرعية*، ٨٩، أن الحكم انتقل بعد سلطان إلى ابنه عبدالله، بينما ذكر كل من ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣٥٦؛ وابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠؛ والبسام، *تحفة المشتاق*، ٣١، أن الحكم انتقل إلى أخيه عبدالله.

استعادة موسى بن ربيعة بن وطبان للحكم سنة ١١٢١ هـ/ ١٧٠٩م.[٦٧] لم يكن موسى موفقاً في إمارته للدرعية، فثار عليه أهل الدرعية سنة ١١٣٢ هـ/ ١٧١٩م بقيادة سعود بن محمد بن مقرن فلجأ إلى العيينة. حكم سعود بن محمد لمدة خمس سنوات حتى توفي سنة ١١٣٧هـ / ١٧٢٤م، وعلى الأرجح فإن مقر حكمه كان في غصيبة التي أصبحت معقلاً مهماً لآل مقرن كما ذكرنا آنفاً.

كان سعود بن محمد بن مقرن أول حاكم، بعد سلسلة من الحكام، ينتهي حكمه بصورة طبيعية وليس القتل أو الإجلاء. بعد وفاته انتقل الحكم إلى كبير آل وطبان، زيد بن مرخان بن وطبان.[٦٨] نشبت الصراعات مرة أخرى بين زيد بن مرخان وعمه مقرن بن محمد بن مقرن، والذي بلا شك، كان يرى أنه أحق بالإمارة من غيره بعد وفاة أخيه سعود، وقد ذكرت بعض المصادر أنه انتزع الإمارة من زيد.[٦٩] استمر الخلاف لمدة عامين وبعد تدخل وجهاء الدرعية تم الصلح بين الطرفين ولكن موافقة مقرن لم تكن صادقة، فقد طلب مقرن من زيد أن يزوره زيارة مجاملة فوافق الأخير بعد أن حصل على ضمان من بعض وجهاء الدرعية، فذهب في جماعة، وعندما بدرت بوادر الغدر من مقرن أُردي قتيلاً من قبل الضامنين. واصل زيد قيادته للدرعية لتنتهي في مغامرة فاشلة قام بها ضد العيينة محاولاً استغلال ضعفها بعد الوباء الذي حل بها سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م، وقتل كثير من سكانها بمن فيهم الأمير. خرج زيد غازياً العيينة على رأس جيش من أهل الدرعية ومن البدو وغيرهم، ولكن أميرها الجديد استدرجه إليها فسار إليه في أربعين رجلاً من جيشه، وعندما دخل القصر غدر به وقتله سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٦م.[٧٠]

(٦٧) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢ : ٣٥٧ ؛ والفرج، *الخبر والعيان*، ١٣٤.

(٦٨) ابن عيسى، *تاريخ*، ٣٨.

(٦٩) ابن خميس، *الدرعية*، ٩٠.

(٧٠) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣٦٨- ٣٦٩؛ والفاخري، *تاريخ*، ١٢٥.

عاد الجيش ومعهم محمد بن سعود بن محمد بن مقرن ليصبح أميراً للدرعية مبتدئاً بذلك عهداً من الاستقرار لم تعهده تلك البلدة منذ زمن طويل، وبشكل أدق منذ بداية القرن الثاني عشر الهجري. كان من أهم الأعمال التي قام بها محمد بن سعود بعد أن تسنم الحكم، وكان له أثر كبير، بلا شك، على مستقبل الدرعية ألا وهو إجلاء " بقية آل وطبان"[٧١] من تلك البلدة.

الخاتمة والنتائج

وختاماً، فإن مما يمكن استنتاجه من هذا البحث هو أن مجتمع الدرعية، أو ما سمي فيما بعد بالدرعية، وربما منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الهجريين، كان موزعاً على ثلاثة مواضع أو أحياء وهي: المليبيد وغصيبة والدرعية.

بالنسبة لحي المليبيد، فمن المستغرب غياب ذكره في المصادر المعاصرة، في حين لم يغب ذكر اسم توأمه حي غصيبة ولا ندري ما سبب ذلك. أول ما يتبادر إلى ذهن المرء كتفسير لذلك هو أن قلة الحوادث والأنشطة السياسية في المليبيد راجع إلى أن عدد سكانه كان قليلاً، وربما أنهم هجروا هذا الموضع لأسباب بيئية أو غيرها، قد يكون من بينها بل وأهمها غور المياه مثلما حصل عندما غار ماء العيينة سنة ١١٣٠ هـ/ ١٧١٧م، فهاجر كثير من آل معمر إلى القصيم.[٧٢] بالإضافة إلى ذلك، فقد كان من دوافع ابن درع، كما ذكرنا سابقاً، في تشجيعه لأبناء عمومته بالهجرة إلى نجد، هو هاجس الأمن للتقوي بهم وحماية مناطق نفوذه، ولهذا أقطعهم مناطق رأى أنها تحقق هذا الهدف، وربما شجعهم للتركيز على أقصاها والتوطن شمالاً حيث تقع غصيبة مقابل مناطق آل يزيد. كما أنه من

(٧١) ابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠.

(٧٢) العوسجي، *تاريخ ابن عباد*، ٧٦.

الجائز جداً - وربما كنتيجة للعامل السابق - أن حظها في التوطن والعمران لم يكن بقدر ما كان عليه الحال بالنسبة لتوأمتها غصيبة لأن تركيز الاستيطان كان على المناطق الواقعة شمال الوادي التي رأى المردة، أنها حتى وإن لم تكن تشكل مصدر خطر عليهم، فهي مناطق يجب الاستيلاء عليها قبل أن يستولي عليها منافسون آخرون مثل آل معمر؛ وكان ذلك سبب حروبهم الشهيرة مع آل يزيد، في حين قل الاهتمام بالمناطق الواقعة جنوباً والتي رأوا أنها أقل خطراً عليهم بحكم أنها من ممتلكات الدروع.

استأثرت غصيبة، الحي الثاني، بمعظم السكان من المردة وغيرهم، ويبدو أنها كانت مقر الحكم في معظم الأوقات إن لم يكن كلها. يقع هذا الحي، في أعلى الوادي على بعد ثلاثة أكيال من المليبيد، وتتميز بموقعها الحصين على رأس جبل فيما يشبه رأس مثلث. يطل رأس هذا المثلث من ناحية الجنوب، على التقاء شعيب قليقل بوادي حنيفة ثم يأخذ في الاتساع كلما اتجهنا شمالا نحو ظهرة ناظرة.[٧٣] وبعد أن انقسم مجتمع المردة إلى قسمين، أصبحت غصيبة موطناً لآل مقرن، ومقراً لحكمهم. ذكر المؤرخ المعاصر، أحمد المنقور، خبر وفاة محمد بن مقرن بن مرخان سنة ١١٠٦هـ / ١٦٩٤م ووصفه بأنه " شيخ غصيبة"[٧٤] فقط، ولم يذكر اسم المليبيد ولا الدرعية.

أما الموضع أو الحي الثالث فهو الدرعية التي تصفها المصادر بأنها قد أصبحت موطناً لآل وطبان، ومن المؤكد أن هذا لا يعني المدلول الجغرافي للمكان، الدرعية، كما فُهم فيما بعد. ومن المعروف أن اسم الدرعية يطلقه المؤرخون المتأخرون (مثل ابن غنام والفاخري وابن بشر وابن عيسى) على كل واحة الدرعية بكافة مناطقها، ولكننا هنا نجد أنفسنا أمام معضلة، وهي إبراز غصيبة مقابل الدرعية وليس ضمنها. ومما يثير التساؤل

(٧٣) انظر: فيسي، *الدرعية*، ٨٠؛ *والأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية*، ط ٢ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١ هـ)، ٨٨ - ٨٩.

(٧٤) *تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور*، ٥٦.

كذلك حول هذا الموضوع هو المدلول الجغرافي لكلمة الدرعية في تلك الفترة التاريخية، التي لم نعد نسمع فيها ذكراً للمليبيد، بل كانت الدرعية في مواجهة غصيبة، ولا ندري هل استخدام هذا الاسم الجغرافي " الدرعية " من قبل بعض المؤرخين، كان بديلاً للمليبيد، أم أن هذا الأخير قد اختفى ذكره وبرز اسم لموضع جديد، قد يكون نواة حي الطريف[٧٥] الذي قُدر له أن يكون قاعدةً للحكم في عهد الدولة السعودية الأولى. كان ابن بشر واضحاً في تعبيره عن ذلك عندما قال: " فاستقل محمد بن سعود بعد هذه (أي بعد حادثة قتل زيد بن مرخان في العيينة) بولاية الدرعية كلها، ومعها غصيبة،" وهذه الرواية مشابهة في تعبيرها لما ذكره ابن عيسى حول هذا الموضوع.[٧٦] ليس من المستبعد أن يكون المقصود بذلك حي الطريف، الذي يبدو أن اسمه (الطريف تصغير طرف) أشتق من موقعه. حيث يقع على رأس أو طرف جبل يطل على وادي حنيفة من الناحية الغربية، فيما يشبه الرأس الداخل في الوادي ويقابله من الشرق حي البجيري،[٧٧] الذي ظهر واشتهر بعد قدوم الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

نشأ حي الطريف في ظروف غامضة، لم تزودنا المصادر بشيء حوله، ولكننا سننطلق من فرضية مفادها أن ذلك تم قبل أن تصبح الدرعية عاصمة. ومما لاشك فيه أن الخلافات بين فرعي المردة، وهما آل مقرن وآل وطبان التي بدأت في البروز بشكل واضح في النصف الثاني من القرن الحادي عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن الثاني عشر الهجريين، انعكست على مجتمع الدرعية، وربما أدت إلى ظهور بعض المواضع السكنية الجديدة. كما أنه من المهم ملاحظة أن حي الطريف هو الأقرب من بين أحياء الدرعية إلى

(٧٥) حول موقع هذا الحي وغيره من المواقع الأخرى في الدرعية، انظر: *الأطلس التاريخي للمملكة*، ٨٨- ٨٩.

(٧٦) ابن بشر، *عنوان المجد*، ٢: ٣٦٩؛ وابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠.

(٧٧) للخريطة انظر: فيسي، *الدرعية*، ٨٠؛ *والأطلس التاريخي للمملكة*، ٨٨.

حي المليبيد.[٧٨] ومن المعروف أن المليبيد لم يشهد نشاطاً استيطانياً أو اجتماعياً أو سياسياً مثل حي غصيبة الذي برز كمعقل لآل مقرن. والحقيقة أننا لا ندري على وجه التحديد أين مقر آل وطبان، وخاصة في فترات تسلمهم الحكم. لكن المصادر كانت واضحة في تحديد غصيبة كمركز لآل مقرن، وفي مقابلها الدرعية، لاحظ، وليس المليبيد كما هو مفترضاً،[٧٩] إذا كان لا يوجد سوى الحيين القديمين. إذن نحن أمام موضعين، أحدهما، غصيبة، قديم معروف وواضح في مدلوله الجغرافي، أما الآخر، فهو جديد ولم يتضح من خلال المصادر مدلوله الجغرافي في تلك الفترة التاريخية. ولهذا نستنتج من ذلك أن ما قصده كل من ابن عيسى وابن بشر بالدرعية - كما أشرنا سابقاً - هو حي الطريف، وأنه تم استيطأنه من قبل آل وطبان على الأقل في الآونة الأخيرة قبيل تحولها إلى عاصمة. من ناحية أخرى، ذهب وليام فيسي في كتابه *الدرعية* إلى أبعد من ذلك، حيث ذكر أن الطريف تجاوزت في أهميتها حيي المليبيد وغصيبة منذ القرن الحادي عشر الهجري تقريباً (السابع عشر الميلادي)،[٨٠] و لكن مما يؤخذ على فيسي في كتابه هذا، عدم ذكر الأسباب التي أدت بالطريف إلى تجاوز الحيين الآخرين، ولا المصادر التي اعتمد عليها للوصول إلى ذلك الرأي. يصعب على الباحث في تاريخ الدرعية، قبول مثل ذلك الرأي، الذي لا يسنده الدليل التاريخي، فلو أن هذا الحي قد تطور ونمى وتجاوز في أهميته الحيين التقليديين، لما أهملته المصادر التاريخية.

انطلاقاً من الفرضية السابقة، فيبدو أن محمد بن سعود انطلق من غصيبة ليستولي على الطريف، وهي التي قصدها ابن عيسى في قوله " وكانت ولاية الدرعية قبل

(٧٨) انظر الخريطة، فيسي، *الدرعية*، ٨٠.

(٧٩) ابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠.

(٨٠) فيسي، *الدرعية*، ٥٤ ؛ انظر التعليق على صورة أطلال غصيبة وكذلك ٦٠.

ذلك لذرية وطبان."[٨١] ومما لاشك فيه أن الاستيلاء على الطريف، والتي يبدو من استقراء الأحداث أنها كانت قاعدة آل وطبان، لم يكن بالأمر السهل؛ لأنه تمخض عنه إجلاء بقية آل وطبان وصفاء الجو لمحمد بن سعود ليحكم في كل الدرعية. ومما يمكن لهذه الدراسة استنتاجه أن اسم الدرعية بدأ يبرز في تلك الفترة ليعطي مدلولاً واسعاً على كل ما عرف فيما بعد بواحة الدرعية، كما يتضح في بيت من الشعر الشعبي لبنت الأمير محمد بن سعود تحثه فيه على التصدي لغارات أمير العيينة عثمان بن معمر، حيث قالت:

يا يبه شف للخيل خيل مثله وإلا فزل عن شيخة الدرعية[٨٢]

كما أنه في حكم المرجح أن محمد بن سعود نقل مقر حكمه إلى الطريف قبيل قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب. كان اختيار الطريف ناتج عن حسن موقعها المحمي حماية طبيعية والمطل على البساتين والمزارع في اسفل الوادي.

وأخيراً، فمن المؤكد أن محمد بن سعود عندما اتخذ من غصيبة مقراً لحكمه أعاد لها ما كان لها من إمارة ومن مجد سابق تزعزع؛ نتيجة لما أصاب حكم المردة من ضعف. مما يؤسف له أن المنقور لم يؤرخ لذلك الحدث حيث توقف عند سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١م، ولكن ابن عباد، وهو مؤرخ معاصر توفي سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤م، أشار إلى ذلك الخبر وقال في وصفه " وشاخ (أي محمد بن سعود) في كل الدرعية."[٨٣] وكما أشرنا سابقاً كان المنقور دقيقاً في تعبيره عندما أورد خبر وفاة محمد بن مقرن ونص على أنه " شيخ غصيبة،" أما ابن عباد فقال: الدرعية كلها، وهذا الاسم يشمل بلا شك غصيبة، ولكننا نشك في أن ذلك يشمل المليبيد التي لم نجد لها ذكراً في هذين المصدرين المعاصرين.

---

(٨١) ابن عيسى، *تاريخ*، ٤٠.

(٨٢) عبدالله بن عبدالرحمن البسام، *علماء نجد خلال ستة قرون*، ط ١(مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٨ هـ)، ١: ٣٧ - ٣٨.

(٨٣) العوسجي، *تاريخ ابن عباد*، ٨١ - ٨٢.

وهكذا يبدو أن محمد بن سعود بصفته معاصراً ومتفهماً لمشكلات مجتمع الدرعية، رأى أن لا خيار له سوى أن يجمع كامل السلطات في يده في الدرعية كلها، وليس فقط في حي غصيبة المعقل التقليدي لأسرته آل مقرن. من ناحية أخرى، يبدو أن بقية آل وطبان في الدرعية اختاروا الزبير ملجأً لهم وهم العارفون به وعلى اتصال دائم مع أقاربهم هناك. وهكذا صفا الحكم لمحمد بن سعود ونعم مجتمع الدرعية باستقرار مهد لقدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إليها وبداية مرحلة جديدة من تاريخها بصفتها عاصمة لدولة أخذت تتسع شيئاً فشيئاً حتى شملت معظم أرجاء الجزيرة العربية.

The Political and Social transformations in Dir'iyyah (A.H. 850-1157 / 1446-1744)

Abdullah M. Almutawa

Assistant Professor , History Dept., College of Arts ,
King Saud University , Riyadh , Saudi Arabia

Abstract. The aim of this research paper is to study the political and social transformations in the society of Dir'iyyah since its early beginnings, when it was concentrated in the two famous sites of Almulaibeed and Ghasibah, until it became a capital. It started by discussing the narration surrounding the founding of Dir'iyyah and its early inhabitants and newcomers. In this subject, we faced the issue of scarcity in the sources, especially those dealing with information about the structure of society and its different strata. However, we should not forget the fact that the Muradah were the founders and the main core of the society, and therefore, we have to discuss some of their activities locally and regionally. An attempt will be made throughout the study to raise some hypotheses and questions about the society and its development and changes. The rise of Alturaif quarter and the spread use of the name Dir'iyyah will also be discussed.